إبراهيم عليه السلام وكلمات الابتلاء

د. أبوبكر القاضي

المجلس الثاني: الإمامة وارتباطها بالابتلاء

abobakrelkady AboBakr Elkady
www.abobakrelkady.net KonnashatElkady

القرآن كتاب حياة، القرآن كتاب نور، القرآن كتاب شفاء، أنزله الله -تبارك وتعالى- لنخرج به من دائرة الشقاء إلى دائرة السعادة.

قال تعالى: {طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [طه: ١-٣]

- إذًا كيف نواجه ابتلاءات الحياة؟
- كيف نواجه مصائب الدنيا؟
- كيف نواجه الآلام والأوجاع؟

يرسم لنا القرآن طريقًا نيّرًا في ذلك من خلال قصص الأنبياء والرسل الذين أحبهم الله عزوجل واصطفاهم رب العالمين تبارك وتعالى بل اتخذ منهم أخلاء كمحمد ﷺ، وكإبراهيم عليه السلام.

الله تبارك وتعالى يرسم لنا هذا الطريق أن هؤلاء الأنبياء قد ابتلوا ومع ذلك صبروا وصابروا ورابطوا، وأنهم لم يسيئوا الظن بربهم تبارك وتعالى، وأنهم أحسنوا الظن بالله العليم الحكيم.

علموا أنه عليم حكيم، ان أفعاله كلها خير وعدل ورحمة وحكمة ومصلحة، علموا أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن مشيئته المطلقة متعلقة بحكمته المطلقة، وأن حكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق فلا يشاء شيئًا إلا هو عين الحكمة وهو عين الخير، وكما ذكرنا علم الناس ذلك أم لم يعلموا!

- أكثر الناس لا يعلمون.
- أكثر الناس لا يفقهون.
- أكثر الناس لا يفهمون عن ربهم عزوجل؛ ولذلك لا يذوقون طعم الإيمان، طعم الإيمان في وقت المحن، في وقت الأزمات.

عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع رسول اللهﷺ يقول: "ذاقَ طعمَ الإيمانِ من رضيَ باللَّهِ ربًّا وبالإسلامِ دينًا وبمحمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلم نبيا" [الترمذي ومسلم]

- أن يذوق طعم الإيمان في أن يرضى بالله عزوجل.
- أن يرضى بأسمائه وصفاته.
- أن يرضى بأفعاله وأقضيته وأقداره، وقسمته للأرزاق.
- أن يرضى بالله الضار النافع، المعطي المانع، المعز المذل، القابض الباسط، الخافض الرافع.
- أن يرضى بالله الذي هو كل يوم هو في شأن، يفرج كربًا، يغفر ذنبًا، يفك عانيًا، ينصر مظلومًا، يؤتي الملك من يشاء، و ينزع الملك ممن يشاء، يعز أقوامًا، ويذل آخرين، كل على وفق العلم والحكمة والخبرة والرحمة والمصلحة.

لا يفعل شيئًا عبثًا يضع الشيء في موضعه تبارك وتعالى.

أحسنوا الظن بربهم، وعلموا أنه أرحم بهم، أنه عزوجل أرحم بهم من الوالدة بولدها أرحم بهم من أنفسهم، الله أرحم بعبده من الأم بولدها.

الله تبارك وتعالى رحيم بنا وإن ابتلانا لا يبتلينا ليعذبنا؛ إنما يبتلينا ليصطفينا، ويهذبنا قال عزوجل: {مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ} [النساء: ١٤٧]

القرآن يصف لك هذا النور، يصف لك طريق السعادة في وسط الأزمات في آتون الصراع، في وسط المحن، في وسط الغموم والهموم والآلام الحياة لن تخلو من ذلك.

الحياة ليست فردوسًا أرضيًا وليست يوتوبيًا تعيش فيها حالة من السعادة والنشوة واللذة والمتعة المستدامة هذا يكون في الجنة، قالا: قَالَ رَسُول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فلا تَمُوتُوا أَبَدًا، وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أَبَدًا" [مسلم]

هذا في جنة أما في الدنيا فانت هنا في ابتلاء، فأنت هنا في ابتلاءات في الحقيقة {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢]

{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} [الكهف:٧،٨]

علم ذلك الأنبياء والرسل، علموا أنهم سيبتلون في الله عزوجل، علموا أنهم سيزلزلون في الله تبارك وتعالى، علموا أنهم سيبتلون بكلمات ليتموا هذه الكلمات، ليتموا عبودية كل كلمة مع كل أمر ومع كل نهي من الله تبارك وتعالى.

هنالك عبودية مع كل اختبار وموقف، مع كل علاقة هنالك عبودية:

- أن تؤثر الله على من سواه.
- أن تؤثر الله على أحبابك.
- أن تؤثر الله على أوطانك.
- أن تؤثر الله على كل ما تحب.
- أن يكون الله عزوجل أحب إليك من كل شيء، وآثر عندك من كل شيء، يكون قضاؤه وفعله وما قدره لك وما اختاره لك أفضل عندك وأحب عندك من كل شيء هذا هو عين الابتلاء، وعين الاختبار، وعين النجاح في هذا الاختبار.

أتوا ربهم عزوجل بقلب سليم هذا القلب الذي قد سلم من كل شيء سوى الله، ولذلك إبراهيم -عليه السلام- إمام الحنفاء إمام الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ خير البرية بعد نبينا محمدﷺ، "جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ فَقالَ: يا خَيْرَ البَرِيَّةِ فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: ذَاكَ إبْرَاهِيمُ عليه السَّلَامُ " [مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وأحمد]

قاله ﷺ قبل أن يوحى إليهﷺ: أنه سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر أو قاله على سبيل التواضع؛ كما اختلف في ذلك أهل العلم، وإنما المقصود إن إبراهيم -عليه السلام- هو أفضل البرية وأفضل البشرية بعد محمدﷺ.

إبراهيم -عليه السلام- الذي اتخذه الله خليلا، لماذا اتخذه الله خليلا؟ لماذا رفعه درجات؟ لماذا جعله إمامًا؟ لماذا جعله أُمة؟ ذلك ما سنقف معه في الحلقات القادمة.

وذلك ما يرسمه لنا القرآن لنصبر، لنصمد في وجه الفتن والشبهات والشهوات، والمحن والصدمات لنسير على الطريق الذي سار عليه الأنبياء ملوك السعادة أصحاب السعادة، والذين هم في الحقيقة أئمة الصلاح والإصلاح عبر الزمان وعبر العصور هم الأسوة الحسنة، وهم القدوة الحسنة نقف مع الخليل -عليه السلام- إبراهيم الذي وفى عليه السلام.